

مقدمة الكتاب

إن الحديث في القرآن لا ينتهي ، إنه لا يحده فكر بشري ولا يقيده تصور إنساني . ولقد كان من الحكمة العميقة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأخذ في تفسيره كلمة كلمة وآية آية وإنما فسر كلمة من هنا وآية من هناك . ولم يقل صلوات الله وسلامه عليه إن تفسيره هو نفسه - رسول الله - يحد المعنى ويحدده ويقيده . وفسره رسول الله صلى الله عليه وسلم بسلوكه أكثر مما فسره بقوله المباشر في معناه ، لقد كان خلقه صلى الله عليه وسلم القرآن ، فكان خلقه تفسيراً للقرآن ومن هنا كان قوله :

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا » .

وفسره صلى الله عليه وسلم بأحاديثه الكثيرة - عن طريق غير مباشر - أكثر مما فسره بطريق مباشر .

وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تحلى بالقرآن فكان سلوكه تفسيراً له وإذا كان قد امتزج بالقرآن فكان نطقه - وما ينطق عن الهوى - تفسيراً له ، وإذا كانت حياته كلها سلباً وإيجاباً ، قولاً وصمتاً حركة وسكوناً إنما هي تفسير للقرآن . فإن الصحابة ساروا على منواله بقدر استطاعتهم ولم يحاول أحد منهم أن يفسر القرآن كلمة كلمة وآية آية وإنما حاولوا أن يستهدوا بالقرآن وأن يكون القرآن - ما استطاعوا - خلقهم .

لقد كانوا يعملون بالقرآن ، ويتخذونه إماماً وقائداً ، إنهم لم يتخذوه

دراسة نظرية وإنما اتخذوه هداية عملية حتى إن بعضهم ما كان يجاوز في الحفظ السورة إلى غيرها إلا إذا حقق ما فيها من أوامر وانتهى عما فيها من نواه ، لقد اتخذوه دستورهم في الحياة وأقاموه إمامهم في حياتهم ، لقد طبقوا قواعدهم والتمروا بمبادئه : من جهاد ، وضرب في الحياة ، وصدق في القول ، وإحسان في العمل ، وعبودية أسمى وأقوى وأخضع ما تكون العبودية لله سبحانه وحده وحققوا بذلك الأمة التي أحبها الله ورسوله ، ولقد ربي القرآن على مر العصور رجالاً اتخذوه إماماً وهدايا فكانوا مثلاً عالياً في الإنسانية لا يدانهم غيرهم من سائر الدول . ولا يزال القرآن للآن هو القرآن الذي وحد قبائل ، وجمع أشتاتاً ، وألف بين قلوب ، وكون أمة ، وأرسى قواعد حضارة نعتز بها لأنها حضارة بنيت على التقوى من أول يوم .

والآن ونحن في شرقنا العربي وفي عالمنا الإسلامي في سبيل النهوض والتطور والبعث والرقى في حاجة أمس ما تكون الحاجة ، إلى الاسترشاد بمصدر الهداية ومنبع القوة :

ومن أجل ذلك فإنه حينما طلب إلى أن أولف كتاباً لينشر في شهر رمضان المبارك اتجه فكري مباشرة إلى القرآن . ولكن المشكلة بدأت أيضاً مباشرة في صورة سؤال هو : عن أية زاوية من زوايا القرآن أتحدث ؟ وبمجرد أن بدأت التفكير في الموضوع بدت أمامي الآية القرآنية الكريمة :

﴿ أَقْرَأْ بِأَمْرِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾

لقد بدت أمامي كروضة يانعة يقتطف الإنسان منها أجمل الزهور ويشم من عيرها أذكى الروائح ، وبدت أمامي كأنها منهج حياة ، وبدت أمامي موجية موجهة ، فسرت في البحث مستلهماً - على الخصوص - هذه الآية الكريمة .

إنها أول آية نزلت في القرآن الكريم ، وهي ثرية بالمعاني . وعلى الرغم من أنها كانت جوهر موضوع الكتاب في ألفاظها وفي جوها فإن لم أقل عنها كل ما يمكن أن يقال . ولكني وأنا أسير في جوها أحببت أن يكون الحديث خطوة في سبيل إيضاح الطريق إلى النهج على سنن الصدر الأول في الاستهداء بالقرآن عملياً ، وفي الأخذ في الناحية العملية عبادة كانت أو ضرباً في الأرض . ولقد استرشدت بالآية الكريمة في عدة مجالات منها :

مجال العلم وهو أساس الحضارة والبعث والنهضة ، ولن تنهض أمة إذا لم تتخذ العلم أساساً من أسس نهضتها : العلم بأوسع وأشمل ما تدل عليه كلمة العلم .

واسترشدت بها في مجال الغزو الفكري وموقف الإسلام منه وذلك لنترجع إلى النبع الصافي مصدر حضارتنا وأساس هدايتنا .

ولما كان الكتاب عن القرآن الكريم وكان الحديث عن أول آية نزلت منه فقد كان من الضروري أن نتحدث عن وصف القرآن وعن فضله ، ولقد استفضت في بيان أوصاف القرآن من القرآن نفسه فتعبير القرآن عن القرآن كله توجيه للمسلم وبيان له عن مصدر هدايته ، ووصف صادق لكتاب النور والهداية .

وشهر رمضان المبارك : شهر الذكر والدعاء . ولذلك استفضنا في موضوع الذكر وموضوع الدعاء مستندين في كل منهما إلى القرآن على الخصوص ، وإذا كنت قد استفضت في موضوعي الذكر والدعاء فذلك أيضاً لأنهما تعبير من أهم وأصدق مظاهر التعبير عن العبودية لملك الملك ، ونحن في عصرنا الراهن أشد ما نكون في حاجة لتحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى فإن فيها الاستغناء به عن سواه . فإذا اتجه المسلم الصادق إلى الله فقد استغنى

به واعتز به ومن كان لله كان الله له : أليس الله يكاف عبده ؟ وإذا حقق المسلم العبودية لله فإن الله يتكفل بنصره .

« إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ »
« وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ »

وكان ختام البحث عن توجيهات القرآن الكريم في النصر بإذن الله .
وإنا لندرجو الله جلت قدرته وعظم سلطانه أن يوجه الأمة الإسلامية الوجهة التي ترضيه ، وأن يمدّها بمدد من عنده ، وأن يكتب لها النصر ، وأن يعيد لها مجدها السابق .

إنه نعم المولى ونعم النصير ؟